العرس الفضي للمكتب الفرنسويّ الطبي

للاب موريس كولنجت اليسوعي وللدكتور هنري نكر
من اساتذة المكتب الفرنسوي الطبي

دخل مكتبنا الطبيّ الفرنسويّ في العام الخامس والعشرين لانشائهِ . فلم يشأ مديروه الافاضل ان يدعوا هذه الفرصة دون اقامة عيد خصوصيّ يكون في تاريخ هذا المكتب كختام الطور الاوّل من حياتهِ وافتتاح طور جديد لمستقبلهِ على مثال البيوتات الكريمة التي تقيم الأفراح بعد مرور ربع قرن على نشأة أسرها فتدعو ذلك الموسم بالعرس الفضيّ تفاؤلًا ببلوغها الى ما هو اعزّ وأرقى شأنًا اي العرس الذهبيّ . واوّل ما يحقّ علينا الشكرُ الجميل للمولى الوهّاب الذي في هذه المدّة كلها افاض على هذا العمل سجال فضلهِ وسرابغ نعمهِ فرفّاهُ من حضيضهِ الى المقام الذي اصابهُ اليوم فلا زالت عينهُ اليقظى ترعاهُ ويدهُ القديرة تكلأهُ من مكايد الزمان . ثمّ نرفع الى العرش الحميدي السامي أيّدهُ الله فرائض الاكرام والعرفان بالجميل لما نالهُ المكتب الطبي من ألطاف الحضرة الملكيّة الشاهانية من الامتيازات التي اعلت قدرهُ وجعلتهُ في مقام ترنو اليهِ الابصار وتطمح اليهِ الامال . جعل الله ايام المتبوع الاعظم في دوائر السعد دائرة وفي افلاك العزّ سائرة ما كرّ زمان وتوالى الملوان . كما اننا نقدّم للحكومة الفرنسويّة واجبات الشكر اذ لم تنفك عن شمول هذا المكتب بنظرها فانهُ من اكبر الشواهد على فضلها في جهات الشرق يأتيها الله امانيها الطيبة وصانها من كل آفات الدهر

ولا ريب في أنّ الاهلين يحبّون ان يطّلعوا على مجمل اعمال هذا المكتب في مدّة ذلك ربع الجيل ليقفوا على بعض تفاصيل اخباره فيشاركونا في تأدية الشكر الى صاحب كلّ نعمةٍ واحسان مع رفع اكفّ الدعاء اليهِ تعالى ليديم عليهِ آثار جودهِ اذ انّ هذا المشروع لا غاية لهُ سوى مجدهِ عزّ وجلّ بنفع البلاد وخدمة العباد

*

﴿ تاريخ المكتب ﴾ كان ظهور المكتب الطبي الفرنسويّ في بيروت في

خريف سنة ١٨٨٣ بعد ان اتفق على فتحه حضرة الاب رئي نورمان رئيس الرسالة السوريّة ووزراء الدولة الفرنسويّة مع مصادقة الدولة العلية . وكان من اكبر السعاة بهذا الامر زعيم الحكومة الفرنسويّة المسيو لاون غمبّاتا ووزراء الخارجيّة سنت هيلار ودوكلار وجول فرّي وغيرهم وكلهم معروفون بميلهم الى مساعدة الدين في وطنهم الّا انّهم رأوا في هذا المشروع شرفاً لبلادهم وخدمةً للانسانيّة بتهذيب اطبّاء ظاهرين لا يجهلون شيئاً من اسرار الاكتشافات الحديثة لمعالج المرضى وحفظ الصحة العموميّة

نشأ المكتب الطبيّ صغيراً حقيراً شأن كلّ المواليد الطبيعيّة ولم يعلم الناس ما يكون من امر هذا الطفل الرضيع أيقوى على صروف الدهر ام لا وكان بعض كهّان السوء يرون ان المولود لا يعيش مع ما يتهدّده من المصائب والآفات وجاهروا بسوء ظنهم فيه وتهكّموا بمنشئيه . لكنّ هؤلاء وجدوا في نائب المسيح قداسة الطيب الذكر ورجل العصر لاون الثالث عشر ما وطد آمالهم فكرّروا أمامهُ كلمة بطرس الى سيّده لمّا امره بصيد الاسماك : « بكلمتك القي الشبكة »

وكان افتتاح المدارس الاولى في بناء لاحق بكليّة القديس يوسف ليس فيه غير حجرتين واسعتين يصل بينهما رواق مسقّف وكان عدد المعلمين اربعة بين يسوعيين ودكاترة عالميين وكان التلامذة تسعة فقط منهم اثنان للصيدلة والبقيّة للطب

امّا رئاسة المكتب فكانت ولم تزل في ايدي آباء الرهبانيّة اليسوعيّة . على انّ هذه الرئاسة كان يتقلّدها رئيس الرسالة العام او رئيس المدرسة الكليّة . وهم اربعة من السنة ١٨٨٣ الى ١٨٩٥ اعني بهم الاباء يليان هنري وبيار لوفاثر وفرنسوا تيراس واتيان كلاره . واتخذوا لهم منذ السنة الثانية ١٨٨٤ مساعداً باسم كنشليار لتدبير امور المدرسة والعناية بادارتها والاهتمام بكل شؤون اساتذتها وطلبتها . فتولى هذه الرتبة الاباء هيبوليت مرسليه (مرّتين) وادوار دي جيغور ويوسف ارتفاج . ثمّ ضبط ازمّة الرئاسة وتدبير المكتب الطبي معاً حضرة الاب لوسيان كاتين من السنة ١٨٩٥ الى السنة الجارية . ولكل هؤلاء الرؤساء من الآثار الحسنة التي تحاق بفضلهم حتى الان . لكنّ للرئيس الحالي من ذلك ما يفوق على كل ما سبق اليه لسلافة كما تشهد عليه الاعمال العديدة التي قام باعبائها

تلك كانت حبّة الخردل التي زُرعت في العام الاوّل سنة ١٨٨٣ . ومن يعارض

حالتها اليوم بحالتها في تلك السنة وجد انَّ تلك الحبَّة اضحت شجرة باسقة الاغصان وارفة الاظلال تأوي اليها طيور تقبل اليها من كل وجوه السماء فيعرف بهذه المقابلة نموَّها العجيب. على انَّ هذا الترقي ليس هو بعمل يوم واحد وانَّما هو نتيجة خمس وعشرين سنة من كل ضروب الاتعاب ومجموع المساعي ووحدة الهمم المتواصلة التي لم ينقطع منها طرفة عين اصحاب هذا المكتب الطبي

ومما لا يسعنا السكوت عنهُ انَّ قناصل الدولة الفرنسويَّة النخيمة في الثغر استفرغوا الوسع في تعزيز هذا المشروع وترقيتهِ في معارج الفلاح والتقدُّم مباشرة بالسريّ الامجد المسيو باتريونيو ثم الوجوه الافاضل دي بتينقيل ثمَّ غويو ثمَّ سان رينه تليانديه ثمَّ جوليه ثمَّ سوار ثم بوبر ديكوتور ثمَّ دي سرسه والقنصل الثاني بيان ثمَّ سعادة القنصل الحالي فوك دوبرك. ولكلهم تقارير قدَّموها لوزارة الخارجيَّة في فرنسة تُصرِّح بنجاح المكتب الطبي وتنائجهِ المشكورة لخدمة الوطن

وكذلك الوكلاء الذين كانت الدولة الفرنسويَّة تعيِّنهم لنظارة المدرسة وبيان احوالها قد اثنوا بصوت واحد على تقدُّم المكتب الطبي وسعوا طاقة جهدهم في توسيع نطاقهِ وتنظيم بعض فروعهِ وتجهيزهِ بكل الادوات للقيام بلوازمهِ لئلَّا ينقص شيئاً عن مكاتب الطب الكبرى في حواضر اوربَّة

وكانت السنون الثلاث الاولى سني درس واجتهاد يسعى المعلمون والطلبة في تحقيق الآمال المبنية عليهم وقلوبهم مع ذلك تتنازعها العوامل المتباينة من نجاح المكتب او حبوطهِ. وكان عدد الاساتذة في السنة الثالثة قد بلغ التسعة . منهم ثلاثة يسوعيُّون والباقون عالميُّون. أما الطلبة فبلغوا ٢٨ ما خلا ٧ طالبي الصيدلة

ومما انهض آمال المكتب في السنة الرابعة انَّ الدولة الفرنسويَّة ارسلت لجنتها لاوَّل مرَّة لفحص التلامذة وكان رئيسها الدكتور ڤيلجان (Villejean) فسُرَّ اعضاء اللجنة ايَّ سرور من نجاح الطلبة ومنحوهم الشهادة الطبيَّة وطلبوا الى الوزارة بان تمنح المكتب امتيازات ونعماً جديدة فاجابت الحكومة الى ملتمسهم وجعلت هيئة التعليم كما في مكاتب اوربَّة العليا وقضت بان تكون الدروس اربع سنوات لكل الطلبة دون تمييز. ومن نعمها انَّها نظَّمت ايضاً الدروس الصيدليَّة وعيَّنت شروطها وادخلتها في سلك المكتب الطبيّ بعد ان كانت ملحقةً بهِ لا يُعلم أتكون اختياريَّةً دون شهادة

رسميَّة ام تُلغى تماماً. وكان الدكتور ريمي (Rémy) رئيس اللجنة الثالثة عضد بكل قوَّته هذا المشروع ففاز به سنة ١٨٨٨

على انَّ الشهادة الطبيَّة الممنوحة من المكتب الفرنسويّ ما كانت لتنفع اصحابها وتجيز لهم مزاولة مهنتهم الَّا بان تُصادق عليها الدولة العليَّة فجرت المخابرات في ذلك بين الدولة العليَّة والحكومة الفرنسوية وبعد امتحانات شتى لم تأتِ بنتيجة مرضيَّة صار القرار بين الدولتين بان كلًّا منهما تُرسل لجنةً من الفاحصين كلَّ سنة فتمنح الشهادة لمستحقيها على سواء. فكان هذا الوفاق مدعاةً لشكر الاساتذة والطلبة يمدُّونهُ من اكبر النعم التي خوَّلتهما الحضرة العليَّة السلطانيَّة للمكتب الطبيّ الفرنسويّ. وقد بوشر بهذا النظام لاوَّل مرَّة في ١٥ شباط ١٨٩٩ فتشرَّف المكتب منذ ذاك الحين بزيارة ابرع اساتذة المكتب السلطاني الافخم كاصحاب الدولة مزهر باشا وخير الدين باشا وشاكر باشا ومحمود باشا حقي واصحاب السعادة خيري بك رفعت ومصطفى بك شوقي واسماعيل بك جلال وتوفيق بك واجد وخالد بك وفخري بك ويوسف بك رامي واسعد بك درويش واسماعيل بك وعلي بك. وكان تحضر اللجنتان تستقبلهما عمدة المكتب استقبالًا غاية في البهجة فتصدح الموسيقى بالنشيد الحميدي والنشيد الفرنسويّ واذا تمَّت جلسات الفحص تُعقد حفلة شائقة يتصدَّرها القنصل الفرنسوي فتعلن امام اللجنتين اسماء الذين استحقُّوا الشهادة فتوزَّع عليهم وألسنتهم تلهج بالدعاء للمتبوع الاعظم وتبسات عرش جلالته مخلَّدًا

وها عشر سنوات قد مرَّت على انشاء هذا النظام الذي ازال كل العقبات في سبيل طلبة المكتب الطبي ففتح لهم طريقًا واسعًا لبلوغ امانيهم. ومنذ ذاك الحين تقرَّر ايضًا سياق الدروس وزاد إقبال الطلبة على المكتب المذكور فتواردوا اليهِ من كل ولايات الدولة العليَّة لا بل من كل الجهات المجاورة لها كالعجم واليونان ورومانية

— ومما اجداهُ نفعًا انشاء مكتب اعدادي منذ سنتين يتهيَّأ فيهِ طلبة الطبّ بالدروس الثانويَّة التي تؤهلهم لاحراز العلوم الطبيَّة كاتقان لغة التدريس اي اللغة الفرنسويَّة ودرس اصول المنطق والفلسفة والعلوم الطبيعيَّة والرياضيات وكل ما من شأنهِ ان يمهِّد عقول الشبيبة لدرس الطبّ وملحقاتهِ وهذه السنة الثانية لانشاء هذا المكتب الاعدادي الذي نجح نجاحًا جاوز الامال وطلبتهُ هذا العام ٤٠. ومن منافعهِ توحيد قوى التلامذة

وترشيحهم للطب على طريقة متناسبة بعد ان تلقّوا الدروس في مدارس متعددة تختلف اسلوباً ونظاماً ومواد تدريس

﴿ دروس المكتب الطبي ﴾ كان الطبّ قديماً ينحصر في امور قليلة اخصُّها: درس الجسم البشريّ ومعرفة ما يعتريه من العاهات ثمّ البحث عن الطرائق العلاجيّة لشفاء تلك العلل. ومنذ توفّق ارباب الطبيعة الى الاكتشافات الجديدة بواسطة المجاهر المكبّرة وبمعرفة العوامل المجهولة سابقاً كالنور والكهرباء وبالوصول الى تركيب الادوية الآليّة وغير الآليّة قد افتتحت للاطبّاء ابواب جديدة لا نُدحة لهم من قرعها. ودونك اخصّ العلوم التي ينبغي لطلبة الطبابة درسها وقد تعيّن لكلها اساتذة متضلّعون في مكتبنا الطبي

١ (علم الابدان وتركيبها) يقتضي هذا العلم معرفةً تامّة للجسم البشريّ وبنيته وتركيب اعضائه ودرس كل عضو بمفرده وما يتألف منهُ من عظام ولحم وغضاريف وعروق وشرايين الى غير ذلك من العناصر. وهذا العلم يُدعى ايضاً بعلم الاناتوميا او تشريح الاعضاء

٢ (علم تركيب العظام) ويدعى ايستولوجيا هو علم مستجدّ تفرّع من العلم السابق وصار مستقلاً بذاته مذ بيّنت النظّارات المكبّرة مركبات العظام وأليافها وخلاياها الاوليّة وغرَّها وعلّلها الطارئة عليها

٣ (علم قيام الحياة) وهو الفيزولوجيا يبحث عن المظاهر الحيويّة التي تُرى في الحيوان عموماً وفي الانسان خصوصاً ويشمل وظائف الاجهزة افراداً واجمالاً في قوام الحياة وحفظها وتنميتها. وهو ايضاً من فروع علم الابدان المستحدثة

٤ (الطبابة) غايتها درس الامراض الباطنة التي تصيب البدن وما يلحق بذلك من تشخيص المرض ومعرفة اسبابه ومناعيله وطرائق علاجه. وتُعرف بعلم الپاثولوجية الذي ينقسم الى علمين الپاثولوجية الباطنة والپاثولوجيّة الخارجة

٥ (الجراحة) اي معالجة الجروح كانت سابقاً تُضمُّ الى الطبابة وهي اليوم مستقلّة بذاتها لوفرة الوسائل الجديدة لشفاء الجروح واجراء العمليات الخطيرة التي ما كانت لتدور على خلد القدماء

٦ (علم الادوية) وهو ايضاً من فروع علم الطبابة الذي تفرّد عنها بعد

اكتشافات الازمنة الاخيرة ليعلم به خواص كل دواء وطريقة استعماله في الادواء

٧ (علوم النبات والحيوان والجراثيم المدية) العلمان الاوّلان يفيدان الطبيب من حيث علاقتهما مع الانسان . اما العلم الثالث فهو علم مستجدّ منذ اكتشافات العلّامة پستور الذي اظهر للاطباء عالماً جديداً لا غنى لهم عن معرفة قاصيه ودانيه وقد دُعي هذا العلم بالبكتيريولوجيا او علم الميكروبات فيعرّف تلك الجراثيم الدقيقة التي لا ترى بمجرّد العين وما لها من العلاقات بالامراض والمُدْويات ويبين الوسائل لنفي تلك الجراثيم الوبئة او مناهضة عملها والاتقاء منها

٨ (علم الصحّة) هو علم عمليّ غايتهُ صيانة البدن من الامراض وتعريف ما ينفع لذلك

٩ (علم الكيميا الطبيّة) يبحث عن تركيب العناصر الطبيعيّة وتحليلها من حيث علاقتها مع الجسم والصحّة

١٠ (علم الطبيعيّات) للطبيعيّات علائق متعدّدة مع الطبّ لا بُدَّ من درسها . ومما أُضيف اليها منذ عشر سنين فقط العلاج بالكهرباء وباشعّة رنتجن . وهو علم يتّسع نطاقهُ يوماً بعد آخر

١١ (علم التوليد) غايتهُ الحرص على مبدإ حياة الانسان وعلاج الادواء التي تصيب الوالدات عند مولد اطفالهنّ

١٢ (علم الصيدلة) هذا العلم مختصّ بتركيب الادوية مع قطع النظر عن الامراض واصحابها وهو علم منفرد يختصّ به بعض الدارسين ممن لا يتولون معالجة المرضى بنفسهم وانما يستحضرون ما وصف به الطبيب

فكلّ هذه العلوم كما ترى لا يمكن الطلبة احرازها الّا بعد الشغل الطويل وكثرة المطالعة والدرس ويتفرّع منها فروع أخرى كعلم امراض العيون واعراض الاذان وعلوم أخرى ثانويّة لا نأتي بذكرها . ومن تعداد العلوم السابقة يستدلّ القرّاء على ما احتاج اليه مكتبنا الطبي من الاتعاب والنفقات لينال اعظم المكاتب الطبيّة الاوربيّة . ولما كان للاطباء واجبات وفرائض خصوصيّة تازمهم بسبب علاقات مهنتهم بالحياة البشريّة وبحفظ الهيئة الاجتماعيّة . عُهد الى احد الاباء القاء الخطب في كل اسبوع على طلبة الطبّ لشرح الآداب الطبيّة وما يترتّب على الطبيب للقيام باعباء وظيفته

خدمةً للانسانيَّة ودفعاً للمضارّ التي تنجم عن سوء معاملة المرضى والمستومين

﴿ معاهد المكتب الطبي ﴾ قلنا انَّ اوَّل ما أنشئ هذا المكتب في سنة ١٨٨٣ لم يكن له غير حجرتين مع مُسقَّف في وسطهما. لكنَّ ترقي الدروس وازدياد عدد الطلبة اضطرَّ اصحابهُ الى ان يشيّدوا بعد ثلاث سنين بناء كبيرًا ذا طابقين أُلحق بالبناء الاوَّل فخُصَّت معاهد كافية بالطبيعيَّات والكيميا والتشريح. وأُفردت في الطابق الاوَّل معاهد أُخرى للمكتبة التي تجمع اليوم نيِّفاً وعشرين الف كتاب طبي ثمَّ للمتحف الطبي الذي عُرضت فيهِ قطعٌ متعدِّدة من الاجهزة الطبيعيَّة والمركبات المصنوعة على هيئة الجسم البشريّ وامثلة الامراض الجلديَّة وامراض العيون والادوات الطبيَّة والجراحيَّة وهياكل الحيوانات المصبَّرة. وهناك ايضاً ديوان واسع تنعقد فيهِ الجلسات الرسميَّة وتُقام فيهِ الامتحانات السنويَّة على جوانبهِ خزانات فيها ٥٠٠ قطرة تحتوي مجاميع لحشائش لبنان ونباتات سوريَّة يبلغ عددها عدَّة الوف جمعها الابوان اليسوعيان فنسان وبوارا مع اربع مجاميع من جنسها اهداها للمكتب جناب الافاضل الدكتور جول روفيه احد اساتذة المدرسة سابقاً والمرحوم المسيو بلانش مدير جمعيَّة سكَّة بيروت الى دمشق والخوري تيلّه (Tillet) من كهنة مدينة ليون والدكتور فيو (Dr Viaux-Grand-Marais). وفي هذا الطابق عينهِ في طرفهِ الشرقيّ معبد خاصّ بالمكتب الطبيّ تُقدَّم فيهِ كل يوم احد الذبيحة الطاهرة يحضرها الاساتذة والطلبة المسيحيون معاً

اما الطابق الاسفل فخصَّ بغرف مختلفة منها غرفتان كبيرتان للمدارس فيهما المقاعد على شكل نصف الدائرة يترقى بعضها فوق البعض. وغُرف أُخرى لادوات العلوم الطبيعيَّة وللمركَّبات الكيميويَّة وللاختبارات الصيدليَّة ودواوين لاستقبال المرضى وفحصهم

وفي السنة ١٨٩٦ شُيدت غرفة كبيرة شرقاً بازاء البناء الاوَّل خُصَّت بتشريح جثث الاموات ودرس تركيب العظام. وخُصَّت الغرفة البنيَّة لذلك سابقاً للدروس الميكرويَّة واستنبات الجراثيم الوبئة وغيرها. وكذلك أُفرز مكان خصوصيّ للاستحمام الكهربائيّ والعلاج بالمجاري الكهربائيَّة ولادوات لشعَّة رنتجن وللتصوير الشمسيّ اللازم لاستثبات بعض الامراض

على انَّ المدارس الطبية تحتاج الى معاهد أُخرى غير المذكورة آنفاً اخصُّها

المستشفيات. وكلٌ يعرف ما للفضل في ذلك لراهبات المحبة اللواتي انشأن في بيروت اوّل مستشفى سنة ١٨٤٨ فدعونهُ مستشفى الرحمة ومن اطّلع على ترجمة رئيستهنّ الاخت المكرّمة جيلاس يدرك ما قاسينَ من ضروب المشقات في انشائهِ وتوسيعهِ وتبليغهِ الى حالته الحاضرة التي تجعلهُ كمستشفيات اوربّة المتقنة. اذ لا ينقصهُ شيءٌ من اسباب الراحة لكل المرضى والسقماء الذين يتواردون اليهِ من مدن الساحل وجهات لبنان على اختلاف الطوائف والاديان فيجدون من التفاني في خدمتهم ما ينسيهم حنان الوالدين

فلمّا أُنشئ المكتب الطبيّ التمس اصحابهُ من راهبات المحبة الفاضلات بان يأذنّ للاساتذة والطلبة معاينة المرضى وفحصهم فاجبنَ الى ذلك بما يُعهد فيهنّ من اللطف لكل عمل خيري وجهّزن لذلك كل اللوازم لهذه الغاية بحيث يستطيع المتطببون في اوقات ملازمة ان يشخّصوا العالّ ويدرسوها درساً تامّاً ويعدّوا لها العلاجات المناسبة. وهذا القسم العملي من الطبابة هو كتتمّة للدروس النظريّة واقرب طريقة لاتقانها واخراجها الى حيّز الفعل وذلك تحت قيادة بعض اساتذتهم البارعين ويساعدهم في هذا المشروع بعض قدماء الطلبة الذين تخرّجوا في المكتب ونالوا شهادة الدكتوريّة

وهناك ايضاً معهد واسع للعمليات الجراحية على موجب كلّ الاكتشافات المستحدثة يجتمع فيهِ تلامذة الطبّ مع زملائهم فيحضرون العمليات ويتمرّنون على اجرائها كما يرون

وكذلك شُيّدت سنة ١٨٩٨ قريباً من المستشفى دار أُلحقت بهِ وخُصّت بتوليد النساء فسُدَّ بذلك خللٌ عظيم في تعليم طلبة الطبّ الذين تمكّنوا بهذا المنوال من انقاذ عددٍ وافرٍ من الاطفال من مخالب الموت اذ حضروا على الحذق المقتضى لتلك الغاية

أمّا تعليم الصيدلة والكيمياء فلا بُدَّ لها من مختبرات لاستحضار الادوية وتحليلها وتركيبها ولكلا الفنين غرفٌ خاصّة مجهّزة لذلك يروّضهم فيها اساتذتهم على كلّ ذلك

ومما يلحق بتعليم النبات جنينةٌ لاستنبات المواليد الطبية وغيرها يتولى امرها

استاذ علم النبات . وهذه الجنينة اليوم غنية بالنباتات الاهلية والاجنبية يتردَّد اليها التلامذة للدروس النباتية ومعرفة الحشائش الطبية

فترى من هذا النظر الاجمالي انَّ مدرسة الطبّ لا ينقصها شيءٌ من الاجهزة والمعاهد التعليمية لولا انَّها تضيق اليوم بعدد طالبيها . والحقُّ يقال انَّ المكتب لمَّا شُيدت مبانيه ما كان اصحابهُ ليظنُّوا انَّ عدد الدارسين يُربي في السنة على الخمسة عشر وفي كل السنين الاربع على الستين . الَّا انَّ هذا العدد قد زاد اليوم الى ما لم يكن في الحسبان فزاد عليه ضعفين بل ثلاثة اضعاف اذ يبلغ اليوم عدد طلبة المكتب الطبي نيفاً ومائتين . فاضحت تلك المعاهد والغرف ضيِّقة على الدارسين تستدعي ابنية ارحب واوفق بالمرام حقَّق الله الاماني قريباً ان شاء الله

﴿ اساتذة المكتب الطبي ﴾ انَّ شهرة المكاتب المدرسيَّة تقوم خصوصاً باهليَّة معلميها . ومن ثمَّ منذ انشاء مكتبنا الطبي استفرغ اهله الوسع باستحضار اساتذه ماهرين تخرَّجوا في الكليات الاوربيَّة وامتازوا ببراعتهم في فنون الطبابة . وليست غايتنا هنا أن نجاهر بمدح الذين علَّموا في هذه المدرسة فانَّ ذلك امر ثقيلٌ فضلاً عن كون هؤلاء العلماء ليسوا بحريصين على مثل هذا الثناء اذ لم ينوا بعملهم مدحاً زائلاً بل قصدوا خدمة الدين والعلم معاً . على أنَّنا لا يسعنا السكوت عن ذكر بعض الامور التي دخلت في طور التاريخ وانتشر خبرها عند الخاصّ والعام

انَّ اساتذة المكتب الطبي كأنهم فرنسيُّون جنساً قسمٌ منها يسوعيُّون يدرِّسون العلوم التي لا تُنافي رتبة الكهنوت كالطبيعيَّات والكيميا الطبيَّة والنبات والامراض الميكروبيَّة والتداوي بالكهرباء وقسمٌ علمانيُّون يلقون دروسهم في بقيَّة فنون الطبّ كالجراحة والامراض الباطنية والخارجية والتوليد والصيدلة

اما اليسوعيُّون الذين درَّسوا في هذا المكتب منذ انشائه فاحد عشر . قضى منهم نحبهم الابوان لابن ثنان في ٣ ك١ سنة ١٨٩٨ وميشال غوتيه في ١٣ ت٢ سنة ١٩٠٧ وكان الاوَّل رجلاً عالماً بالفلسفة والآثار والهيئة والعلوم الرياضية والطبيعية والنبات علَّم تلك الفنون نحو ثلاثين سنة وله فيها عدَّة تآليف مهمَّة طُبع منها بعضها فقط . وكان الثاني من اساتذة الطبيعيات الممتازين . يذكر اهل بيروت الى يومنا هذا الخطب التي ألقاها مدَّة على وجود المدينة مع اجراء الاختبارات في الاكتشافات المستحدثة

وننظم في سلك الموتى اليسوعيين الذين تولوا ادارة المكتب دون التعليم وكانوا كلهم من الرجال المعدودين علماً وفضلاً وقدرةً على التدبير كالاب پيار لوفائر المتوفى في ١٢ آذار سنة ١٨٨٨ والاب يوليان هنري (+٣١ تمّوز ١٨٩٨) واتيان كلاره (+١٦ ت١ ١٩٠١) ويوسف اوتفاج (+ ايلول ١٩٠١). وكذلك الاب يوحنا راي (+ ١٠ شباط ١٩٠٨) الذي كان خطب سنين عديدة في الطلبة وارشدهم الى اتمام واجباتهم الطبية مع رعية الآداب المختصّة بمهنتهم

امّا الاحياء فقد بقي منهم ثمانية احدهم الاب بولس سولران حضر افتتاح المكتب سنة ١٨٨٣ وعلّم فيه حتى السنة المنصرمة وقد اقام له تلامذتهُ القدماء والحاليّون حفلةً بهيجة تفنّنوا فيها في ذكر مآثرهِ المتعدّدة ولاسيما عنايتهُ في ترقيتهم وتفانيهُ في تهذيبهم. وقد قضت الاحوال على ثلاثة آخرين بالابتعاد عن بيروت امّا طلباً للصحّة واما خدمةً للمكتب الطبي. والباقون يعلّمون بما عُرفوا بهِ من النشاط اقدمهم في التعليم الاب لويس بولوا الذي درس مدّةً في مكتب پاستور في باريس ولا يزال يواصل دروسهُ منذ السنة ١٨٩١. ويليهِ الاب موريس كولنجت استاذ الطبيعيات وملحقاتها منذ السنة ١٨٩٥. ومن المعلوم الشائع انّ اليسوعيين لا يطلبون لهم الامتيازات الشرفية الّا انّ الحكومة الفرنسويّة من تلقاء ذاتها قد منحت خمسة منهم وسامات فخريّة تدلُّ على تقديرها لمساعيهم

امّا الاساتذة العاليّون فشيوخهم اليوم اربعة اقدمهم الدكتور هنري نكر الذي انضوى الى معلمي المكتب الطبيّ في ١٠ آذار سنة ١٨٨٥ ثمّ تبعهُ في تشرين الاوّل من السنة الدكتور دي برون. وثالثهم الدكتور هاش جاء بيروت في تشرين الاول من السنة ١٨٨٨. والرابع الدكتور گيكْ ابتدأ تعليمهُ الصيدلة في تشرين الاول من السنة ١٨٩٤. وقد منحت الحكومة الفرنسويّة كلّ هؤلاء المعلمين امتيازات شتى من اوسمة وجوائز شرفية ونظمتهم في سلك دواوينها العاليّة. وكذلك منحهم قداسة الحبر الاعظم بواسطة سيادة القاصد الرسولي وسام القديس غريغوريوس من رتبة كومندور في السنة المنصرمة. ولكلهم تآليف متعدّدة نشروا معظمها في فرنسة ونال الكثير منها انواطاً ذهبية او جوائز أخرى شرفية. والبعض من هذه المطبوعات طُبع في بيروت او نُقل الى العربية.

الدكاترة المساعدون في المستشفى الفرنسوي

كتور ابراهيم نعمة مدوّر الدكتور نعمة مرعي الدكتور الياس الحاج الدكتور الياس جبارة

ومنها ايضاً نصوص طبيّة قديمة نشروها في لغتنا وذيّلوهـا بالحواشي وعلّقوا عليها التعليقات المفيدة

ومن الاساتذة الذين دخلوا حديثاً في عداد معلمي المكتب الطبيّ الدكتور كلمت (من السنة ١٩٠٣) والدكتور شابوتان (١٩٠٥) وقد احرز كلاهما السمعة الطيبة منذ قدومهما واستوقفا انظار الناس باعمالهما المشكورة وخدمهما المذكورة

ولسنا لننسى في جملة هؤلاء الاساتذة الدكتور جول روفيه الذي حضر افتتاح المكتب الطبي سنة ١٨٨٣ وخدمهُ ٢٢ سنة بنشاط الى السنة ١٩٠٥ فندبتهُ الحكومة الفرنسويّة الى التعليم في مكتبها الطبي في الجزائر. وامتيازاتهُ الشرفية وكاباته العلمية اشهر من أن تحتاج الى تعريف

ومن لا يبرح ذكرهم من قلوب الاحياء ثلاثة معلمين توفّاهم الله في منتصف اعمارهم فانتقلوا الى دار البقاء قبل ان يحققوا كلّ الآمال الطبية المبنية عليهم وهم الدكتور سينس وكان من عمدة منشئي المكتب (١٨٨٣ — ١٨٨٧) والدكتور بويه (١٨٨٩ — ١٨٩٧) افادنا بكتابهِ الفرنسوي التفيس المعنون « الشروط الصحية الحالية في بيروت وضواحيها » والدكتور دي لابونزدبار (١٨٩٨ — ١٩٠٣) ولهُ ايضاً كتاب جزيل الفائدة في القوانين الصحية لم يظهر منهُ الّا قسم واحد. رحم الله هؤلاء المرتى واجزل ثوابهم في دار الخلد. وقد امتاز الاثنان الاخيران بتقاهم وكانت ميتتهم صالحة فخلّفا الاسف في قلوب كل من عرفهما

﴿ تلامذة المكتب الطبي ﴾ يقول المثل العربي انّ من اشبه اباه ما ظلم. فأطيب ثناء نثني بهِ على المكتب الطبيّ واساتذتهِ الافاضل ذكر التلامذة الذين تخرجوا فيهِ على علوم الطبابة

واوّل ما ينبغي تنبيه الافكار اليهِ عدد هؤلاء الطلبة الذين توارددوا الى مناهله الطبية ليستقوا منها: فانّ تراجم الورّاد على الماء احسن دليل على عذوبتهِ وطيبهِ. ولو اعتبرنا عدد كلّ الذين دخلوا المكتب ليتلقّفوا فيهِ المعارف فانهُ لا يقل عن ٨٢٧ بمعدل ٣٣ في السنة. نعم انّ كل هؤلاء لم ينجحوا في دروسهم او لم يتمموها لاسباب شتى لكنّ مجرّد تعدادهم كافٍ للدلالة على رواج العلوم الطبية في هذا المكتب

وان لحظت جنسيّات هؤلاء الطلبة وجدتهم من جنسيات عديدة وناهيك بذلك

شاهداً على اتفاق الجميع في اعتبار المكتب الطبي . ولا غرو انّ اكثرهم عدداً العثمانيون فنهم ٤١٧ قدموا من كل انحاء الممالك المحروسة وولاياتها ومنهم ١٧٥ لبنانيون و٨٦ مصريون و ٣٠ فرنسويون و٢٥ يونان و١٨ ايطاليون و١٠ روسيون و ٩ نمسويون و٦ انكليز و٣ اسبانيون واثنان المانيان وواحد من هذه البلاد الثلاث: البرتغال ورومانية والحكومة الفضية. اما عدد الذين حصلوا على الشهادة النهائية فهو ٢٨٥ للطبّ و٦٧ للصيدلة (اطلب الجدول ص ٣٥٥)

وكذلك اديان الطلبة مختلفة جداً فالمسلمون ٨٣ والاسرائيليون ٥٥. اما النصارى غير الكاثوليك فنهم الروم الارثدكس ١١٨ والارمن الغريغوريون ٤١ والاقباط الارثدكس ٥ والبروتستانت ١. على انّ معظم الطلبة من الكاثوليك اكثرهم الموارنة وعددهم ٢٤٣ ثم الروم الملكيون ١١٠ ثمّ اللاتينيون ٧٢ ثمّ الارمن ٣٨ ثمّ الاقباط ١٢ ثمّ الكلدان ١٠ والسريان ١٠

اما المدارس التي تخرّج فيها هؤلاء التلامذة فهذا جدولها على الترتيب ٢٤٢ طالباً في مدارس الاباء اليسوعيين ثمّ ١٣٨ في مدارس الاباء اللازاريين ثمّ ٩٥ في المدارس المارونية ثمّ ٦٥ في المدارس العالية الحرّة ثمّ ٤٧ في مدارس اخوة المدارس المسيحية (الفرار) ثمّ ٣٨ في المدارس الاسرائيلية ثمّ ٣٤ في مدارس الروم الكاثوليك ثمّ ٣٣ في مدارس رهبان مختلفين كالاباء الفرنسيسيين والاباء الافريقيين وغيرهم ثمّ ٣٠ في مدارس علمانية شتى ثمّ ٢١ في مدارس الحكومة المصرية ثم ١٤ في المدارس الارمنية الغريغورية ثم ١٣ في مدارس الروم الارثدكس ثمّ ١١ في بعض المدارس العثمانية ثم ٦ في المدارس البروتستانية ثم ٥ في مدارس القبط الارثدكس ثم ٣ في مدارس الارمن الكاثوليك ومثل ذلك في مدارس الحكومة العجمية

هذا ما يختصّ بعدد التلامذة واصلهم وجنسياتهم والمدارس التي اخذوا فيها مبادئ العلوم وتعريف الذين نالوا الشهادات. وذلك ليس بكاف لبيان فضل الطلبة وتقدّمهم في العلوم فانّ للمدرسة وسائل فعّالة لترقية الدروس وتنشيط الدارسين على إحكامها من ذلك سهر اصحاب المدرسة على آداب الطلبة ومثابرتهم على حضور الدروس في اوقاتها ومنها المفاوضات الاسبوعية للتمرّن على الدروس ومراجعتها . ومنها الامتحانات العلنية مرّتين في السنة قبل زمن الموقع وفي غاية حزيران ليتحقّق الاساتذة

نجاح الطالبين فان لم ينجحوا تُمضي عليهم بمراجعة المواد التي لم يتقنوها مدة ستة اشهر اخرى

ومن اسباب التنشيط المساعدة على ترقي الطلبة الداخلين جلسات اسبوعية يعقدونها في فنون العلوم ويلقون في ذلك خطباً يُجازى اصحابها بانعامات خاصة اذا ما وُجدت متقنة واهلاً بالجزاء

وكل هذه الوسائل ووسائل اخرى غيرها تزيد رغبة التلاميذ في طلب العلوم وتنهض بهممهم الى الامور الشريفة. ومما يدل على ان اصحاب المكتب قد اصابوا المرمى ان معظم هؤلاء الطلبة لم ينالوا فقط الشهادة الطبية بل نالوها ايضاً بامتياز مع علامات فخرية لا تُحصى ربما اندهل بسببها اصحاب اللجنتين العثمانية والفرنسوية واثنوا من جرائها على الطلبة واعلنوا بثنائهم في المجلات والجرائد

وزد على ما تقدم ان المكتب الطبي بعد انتهاء دروس طلبته لا يهمل امرهم بل يسعى في نجاحهم وفي كافة شؤونهم ليقوموا بمهنتهم القيام الحسن. ومن الوسائط المؤدية الى هذه الغاية اجتماعات سنوية يحضرها كل من يمكنه من التلامذة الاقدمين ويتفاوضون فيها عن كل الشؤون الطبية. وفي هذا الشهر عُقد اجتماع من هذا الصنف دعي اليه جميع الدكاترة المتخرجون في المكتب منذ ابتدائه وهو الاجتماع العاشر من جنسه تصدر فيه كل من حضرة ملاذ الولاية وسعادة القنصل الفرنسوي مع عمدة المدرسة. ومنذ سبع سنوات صارت هذه المجتمعات على شكل المؤتمرات العلمية تتشكل فيها اللجنات وتُقام فيها الابحاث. ويدوَّن كل ذلك في نشرة خصوصية تُطبع سنوياً.

ولا ندحة هنا من توجيه النظر الى الدكاترة الذين خرجوا من المكتب الطبي لعلنا نقف على شيء من اعمالهم التي حققوا بها آمالي مواطنيهم لان عند الامتحان يُكرم المرء او يهان

ومما زاده بادئ بدء ان تلامذتنا اليوم قد تفرقوا تحت كل كوكب تجدهم في ثلاث قارات العالم القديم بل في العالم الجديد نفسه فتجدهم في كل جهات الممالك المحروسة ومدنها العامرة لا تكاد تخلو منهم مدينة ذات شأن مباشرة بدار السلام. وقد عُرف منهم كثيرون بنشاطهم وحذقهم في جزائر اليونان والبحر الاحمر وفي قبرص وفي كريت وفي اقطار العجم وكذلك منهم في اوربة واميركة بعض الافراد الذين

احرزوا هناك ثقة الاهلين رغماً عن كثرة الاطبّاء فيهما . اما افريقية فانّ فيها عدداً وافراً من المتخرجين في مكتبنا منهم في تونس وطرابلس الغرب والحبشة وكل جهات مصر والسودان . وقد طلبت الحكومات المحليّة بعضاً منهم لاعتبارها لتهذيبهم العلمي . وقد توفّرت لدينا الرسالات من المراجع الرسميّة التي تثني على اعمال كثيرين منهم وتطلب في تفانيهم في مزاولة مهنتهم حتّى في تمريض الموبوئين . وفي السنة ١٨٩٠ لما ظهر الهواء الاصفر في جهات طرابلس طلب ستة منهم الرخصة من الحكومة السنية ليضحّوا نفوسهم في خدمة المصابين بالعدوى فنالوا غايتهم وعادوا مصحوبين برقيم من أرباب الامر هناك يشيدون على مروّتهم : وكذا فعل غيرهم في يافا ومصر

ويشهد ايضاً على كفايتهم والقيام بمهام وظيفتهم اوسمة وامتيازات شرفية نالها بعضهم من دولتنا العلية وبعضهم من الحكومة الافرنسية وهم عشرة وغيرهم من دولة العجم او حكومة مصر والسودان . وقد افاد البشير غير مرّة ما حظي به جناب الصيدلي القانوني عبد الله افندي مخائيل رعد من الانعامات من جلالة ملك الحبش منليك الثاني وهو من نجب تلامذة المكتب الطبي

ومن الشواهد ايضاً على همتهم تآليف طبية نشروها في عدّة لغات نخصّ منها بالذكر ما كتبوه في العربية من فصول ومقالات وكتب مختلفة الحجم والموضوع لجناب الدكاترة خير الله فرج صفير وحبيب الدرعوني وتابوليون ماريني ونجيب ادّه وامين جميل وعبد الله ميخائيل رعد وفيليب بركات وكامل خوري والفرد خوري وشحاته خزام وغيرهم ايضاً

وقد كان بودّنا في هذه الحفلة ألّا نلقي ليد الموت اثراً في الشبيبة التي نشأت في مكتبنا بيد انّ حكم المنية لا يُردّ وقد دارت كاسها على شفاه كثيرين منهم فجرعوا سمّها الزؤاف . وقد بلغ عدد هؤلاء المرحومين ٣٥ بمعدّل واحد في السنة . وكان ١١ منهم اتمّوا دروسهم ونالوا الشهادة الاخيرة . وممّا يعزينا انّهم كلّهم كانوا من ذوي الورع والتقى فنؤمل لهم الرحمة الواسعة في الاخرة

ونجعل مسك ختامنا الدعاء الى الله بان يكون هذا النصف القرن الجديد الذي يستأنفهُ المكتب الطبي مقروناً باليمن والسعد لمجدهِ تعالى وخير الوطن العزيز

جدول

الطلبة الذين تخرّجوا في المكتب الطبي

من السنة ١٨٨٣ الى ١٩٠٧

الداخلون في		الخارجون مع الشهادة في	
الطبّ	الصيدلة	الطبّ	الصيدلة
١٠	١	—	—
١٣	٣	—	—
٨	٤	—	—
١٧	٧	—	—
١٣	٣	٣	٣
٩	١	٧	٣
١٤	٤	٤	١
١٣	٣	٧	٣
١٤	٠	٦	١
١٥	٤	٧	٠
١٦	٤	٤	٣
٢٤	٥	٨	٣
٢٦	٨	١٠	٠
٢٦	٨	٧	٠
٣٥	١٤	١٠	٣
٢٤	١	١٣	٣
٢٢	١٣	٧	٣
٤٧	١٧	١٧	٧
٤٥	٩	١٦	٦
٤١	١٣	٢٢	٥
٢٨	٦	١٣	٥
٢٩	٧	٣٠	٧
٥٣	١٦	٢٥	٥
٥٠	١٣	٢١	٥
٤٩	٩	٢٠	٧
٦٥٨	١٦٩	٣٨٥	٦٧